

في الليل الموحش العتم كانوا يمترسون خلف الأكياس الرملية على الشاطئ، ونسمهم الوحيد موسيقاً تبعثها الرياح الخريفية عبر أمواج البحر. وهناك بعيداً تتصب على الرمال البيوت السعفية والطينية - وأخر أطلالها هذا الجدار - تخزن صدى البكاء والعويل على القتلى والجرحى بتلك النيران، يرميها ذلك الشيء المخيف الرايس في كبد البحر. الحرائق في كل مكان ومع النيران كان الوحش يرسل جراثيمه بين الحين والآخر، عبر قوارب تجذيف تتسلل إلى الشاطئ، وفي تلك اللحظة وصلت لأهنا بالراحة بعد شهر الليالي في الحفر الرطب. أبدت الكلاب استياءها للأعمال القدرة، وهي تجري عبر الأزقة باتجاه ذلك الوحش. أحست بالدم يتتساعد في عروقى. خطوت بسرعة في الزفاقي الرطب المؤدي إلى المنزل السعفي ذي الحضن الدافئ، أسرعت إذ مر أحد القوم وهو يردد لا حول ولا قوة إلا بالله. وعندما وصلت إلى نهاية الزفاقي، وقفزت عنده ولما أجرأ على السؤال فقد كان الجواب ماثلاً أمامي. تسابقت أيدي القوم تربت على كتفي وتواصيني (أحسن الله عزاك يا بو عبد الله)، أمسكت أحد الرجال بكلتا يدي وهزرت بهعنف: لزم الرجل الصمت مرمياً على صدري. انفجر باكيًّا وهو يردد (أحسن الله عزاك فيهم). اغرسقت عيناي وأختضرت بكل قوتي وضاعفت بجسمه على صدري. وإذا بنا نشاهد تصاعد اللهب قريباً من دارك. وإذا بالنار قد أتت على الخيمة التي كان فيها الأولاد، اقتربت من الجثث الملقاة على بقايا السعف الذي تم إنقاذه، نهضت واقفاً على قدمي المُرتجفين خطوت نحو الركام. تناولت بيدي حفنة من الرماد الساخن. والذكريات التي أحرقت، بصمت بكتوا، إشعاعنا في إعداد الجنث لدفنها في الصباح الباكر بعد صلاة الغائب، انفردت بعدها على كومة من الرمال على بعد خطوات من الشاطئ. جرفني بكتء حاد. زرعت وجهي في حضن الرمال. اندفعت بقوه نحو الخور، صلت الشاطئ. لفحتني سممات الخريف الآتية من البراري وأنا أنزلق إلى الماء لأجد الشاحف، السكين هناك في السلة، - أبو عبد الله ماذا جر؟ تناولت طرف القماش الذي كان يلحف به مبارك، سيرحل الليلة. سكت مبارك ولم يرد بكلمة واحدة، سحب الم رسالة، ثبت المجاديف. - ولكن يا بو عبد الله. - أرجوك يا مبارك. استمر في التجذيف والزم الصمت حتى نصل. بدأنا نضرب تلك المجاديف بخفة وتناسق الشاحف يمخض عباب المياه بانسياب خرجنا إلى عرض البحر، وأستقر الشاحف بالانزلاق وسط الصمت حتى اقتربنا. حدثني عن أي شيء؟ لا تنتظر يا مبارك. ولا تخبر أحداً، الانتظار لا يطاق. ليست سرفال مبارك الذي يستخدمه في الغوص، تعاقت به. لكن سرعان ما استدركت إحساسى أن (مبارك) يراقبنى. بعد أن إقتضت فرصة نومهم جميعاً، فحصت كل شيء. وسقط متكتعاً على نراعي. صور المأسى والحرائق والأطفال اليتامي والمراجيح التي شنت على الأغاني. وحسبت أنفاسه بمدخنة قطنية منعاً للضوضاء والصرخ. شعر الحارس بالأمر وشاهدته يقترب من خلال الأفق البعيد. أسرعت باتجاه الباب متعثراً بأكمام الباب. وألم الجرح حتى ارتطمت بالشاطئ. اختلط فيها البكاء بالضحك. حملقت بالوجوه المحيطة. وإذا ببارك واقف والإبتسامة تملأ ثغره، ودمعوه الساخنة تنسال على وجهه. امتدت أيدي القوم وعبارات الأسى تعلو الأفواه المكلومة، حملوني إلى الحي الحزين والجروح يتزحف بغزاره. وكأنني بالكلمات المحفورة على الجدار القديم تتحرك، وتنطق بكل الأجيال أن هذا الجدار يعرف حكاية أبي عبد الله. وتحته تم غسل جثة أبي عبد الله. وتحته أيضاً قال أبو عبد الله للرجال (ألم أقل لكم إن الوحش لا بد أن يرحل). وبكيت على صدره كثيراً عندما شاهدت الوحش يرحل.